قراءة في الفكر الإصلاحي للدكتور إبراهيم الجعفري

مقدمة

يُعَدُ الإصلاح في التنوير الفكري، نوعاً من منجزات العصور الفاعلة في حركة التاريخ، ومن متطلبات واقعها، كما إن فكرة الإصلاح تُعَدُ مطلباً في كل واقع.

إن هناك احتياجات مستمرة للتطور الاجتماعي والاقتصادي والروحي... فالإصلاح هو الانتقال من الأفكار والرؤى التقليدية لعقود مضت إلى أخرى موافقة، ومنسجمة مع حركة العصر والأفكار؛ لذا لابد من حركة تنويرية في الفهم الديني، من أجل أن تكون مقدمة للتنوير والإصلاح السياسي، والاقتصادي، والثقافي.

إن الاصلاح السياسي هو عملية معرفة البدايات، والآليات، والآفاق، وهو أسهل من الإصلاح الديني، الذي يعتبر اليوم من أهم ما نحتاجه في ظرفنا الراهن.

إن الكثير من الحركات، والتيارات، والتجمعات الإسلامية عندنا تحتاج إلى وعي مزدوج، أي: سياسي وديني؛ وذلك للنهوض بالمجتمع والدولة.. فالإسلاميون لا يملكون مشروعاً واضحاً لعلاقة الدين بالدولة، أو لإصلاح المؤسسة الدينية.. إلا أن هناك أفراداً من النخبة يحملون هذا الهمّ، ويعملون على تفعيله، وقد كان ومازال رائدهم في هذا المجال هو الدكتور إبراهيم الجعفري الذي سعى إلى تشكيل تيار إصلاحي وصف دوره بقوله:

(يقوم بإيجاد الحلول، ولملمة الاتجاهات السياسية والاجتماعية، بعد أن كانت الفكرة تتحرك في إطار النُخَب، وإن الأفكار مجردة عن مشاعر الناس، وتدور في أروقة المفكرين والمختصين.. إلا أنها لم تتحول إلى تيار...) ويُضيف الجعفري قائلاً :

(ولكي لا تبقى الفكرة مقيّدة في عقول النخبة فقط, تم تحويلها إلى تيار اجتماعي من خاصة الناس إلى عامتهم، حتى يتفاعلوا معها بأهداف محسومة، وبعواطف لا يشك فيها أحد).

لقد أصبح الإصلاح مطلباً نخبوياً، وشعبياً مهماً، والاهتمام به يجب أن يكون من الأوليات، سواء من قبل الدولة وأجهزتها التنفيذية، والتشريعية، أم من قبل الحركات والأحزاب المؤتلفة فيها والخارجة عنها.

إذ لابد لكل تغيير مرحلي وحضاري من أن يسبقه تنظيم للقيم والأفكار حول العلاقات الجمعية في صيغ جديدة، تُعيد بناء الاقتصاد، والنظام الاجتماعي؛ فتضمن

بذلك إعادة بناء الإنسان، وتخليصه من آثار النظم الدكتاتورية، وكذلك من أجل تخليصه من الأوضاع، والتصرفات الخاطئة.. وهذا يجب أن لا يُترَك للصدفة، فحياتنا الحاضرة تتطلب مفهومات جديدة، تتقدم بإنساننا إلى مكانته المناسبة.

إن الإنسان العراقي، ومثلما عُرِف عنه، كان ولازال أكثر عقلانية وموضوعية وانفتاحاً.. على الرغم من عقود الاضطهاد، والحروب، والقهر، والفقر.. والسنوات التي تبعتها، والتي طغى عليها التطرف، والتعصب، والإرهاب.. إلا أن هذا لم يُلغِ عقلانيته، أو يقتل وعيه وإنسانيته.. فالفطرة الأصيلة عُرضة للتأثر، وهذه هي سُنة الإنسانية، فإن لم تتلوث قد يُصيبها بعض الشرر، وقديماً يقول المثل:

(صديق السوء كالقين، إن لم يحرق قميصك، دخّنه).

إن حركة الإصلاح كانت، ولاتزال تنسجم مع النفس البشرية السويّة، ومع ضمير المجتمع، وأفكاره، وتطلعاته المستقبلية.

التيارات الإصلاحية الدينية

يعود مفهوم الإصلاح في مناهله الأولى إلى القرآن الكريم؛ ما يعني أنه يشكل جزءاً من الشريعة، فهو واحد من تعاليمها.. ويظهر المصلحون في القرآن على أنهم من يقومون بالأعمال الصالحة، وأنهم من ذوي الأنفس الطاهرة، وأنهم يأمرون بالسلم والوئام، ويطلبون الكمال في أخلاق القريبين منهم، ويعملون على تحسين حال الناس:

((إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب)). (هود/ 88)

أما في المسيحية، فقد قامت حركة الإصلاح في أوروبا في القرن السادس عشر، باعتبار أنها كانت تهدف من جهة إلى العودة بالدين إلى صورته الأصيلة، ومن جهة أخرى المواءمَة بين النصوص الدينية، وبين مقتضيات العقل.

ويعتقد أحد الباحثين، أن الإحساس الأول بالحاجة إلى الإصلاح ظهر في كتاب (حاجي خليفة: دستور العمل لإصلاح الخلل سنة 1653م)، وهذه الفترة تتزامن مع الصعود الأوروبي، وعصر التدهور الإسلامي.

إلا أن مجتمعاتنا العربية والإسلامية لم تعرف إصلاحاً جذرياً، بل كانت هناك إصلاحات دينية بدأت من العصر الوسيط، فقد مثّل المعتزلة تياراً متكاملاً.. وبعدها تجربة (ابن رشد)، إلا أنها لم تتحول إلى تيارات اجتماعية، كما لم يسجّل تاريخ الفكر الإسلامي، محاولات عميقة وذات بال في مجال الإصلاح منذ القرن الثاني عشر الميلادي وحتى القرن التاسع عشر الميلادي.

لقد كان أول رائد طليعي من رواد الإصلاح والنهضة هو (رفاعة رافع الطهطاوي)، الذي دعا إلى تطويع الدين للاحتياجات، والمنافع العصرية.. والتوفيق بينه وبين المدنية الحديثة.. وكان العنصر المحرك في فكره هو العقلانية، والرغبة المُلِحة في التمدن والتحضر، مستنداً في هذا إلى الدين الإسلامي من دون جمود سلفي.. إو انغلاق فكري، ثم كانت الانطلاقة الثانية في نظر الكثير من المؤرخين هي انطلاقة (جمال الدين الأفغاني)، وقد تميّز الأفغاني، بمنهج فكري خاص به، وحياة حافلة بألوان الإصلاح والتنوير، وإحياء الفكر الإسلامي، وقد توافرت له فرص عديدة للإصلاح.

لقد كانت النجف، بما تمثّله من أصالة، وعمق في الفكر الإسلامي منطلق الأفغاني الأول، إضافة إلى معارف الفقه وعلومه، كما أتاحت له رحلاته الكثيرة في العالم الاطلاع على عادات الشعوب، وثقافاتها؛ ما شكّل مصدراً أضيف إلى رصيده الثقافي الواسع المتنوع... لقد كان الأفغاني، يؤمن بإحياء الإسلام وإصلاحه.

ومن رموز حركة الإصلاح الإسلامي الذي تأثر بالأفغاني هو الشيخ (محمد عبده)، وقد اشترك مع أستاذه الأفغاني في الكثير من التحركات الإصلاحية على مستوى الدين، والفكر، والسياسة.

ومن أعمال (محمد عبدة) الإصلاحية: إصلاح التعليم العثماني، ولائحة إصلاح القطر السوري، وإصلاح التربية في مصر.

كما شرع في تحقيق كتب التراث الإسلامي؛ فحقق وشرح في نهج البلاغة للإمام علي (عليه السلام)، وشرح مقامات (بديع الزمان الهمداني)، ومن أشهر مؤلفاته (رسالة التوحيد).

أما عبد الرحمن الكواكبي، فقد حاول إصلاح مفهومات الدين السائدة لإصلاح الفكر، وتوحيد الرأي العام مستعيناً في ذلك بما سجله من ملاحظات، حول ما فعله الإصلاح الديني في الفكر الغربي.

لقد انطلق طهطاوي من اعتقاده بأن الدين هو حامل هذه الثورة، وأن الإصلاح الديني هو أقرب طريق إلى الإصلاح السياسي.. مدركاً أن الإصلاحات كلها مترابطة ومتكاملة.

لقد طرح الكواكبي مهمة تنويرية، تمثلت في نشر الوعي بين الناس، وذلك بغية بلوغ الرقي بالواقع، وقد احتلت مسألة الوعي ونشره في صفوف العامة، وتنوير العقول، ورفع الضغط عنها، وفضح ويلات الاستبداد، مكانة رئيسة في أفكاره، ومؤلفاته.

وفي النجف الأشرف، كانت حركة الإصلاح تظهر بين حين وآخر، وتألفت لذلك لجان، ومجالس وجمعيات تهتم بهذا الشأن، وقد واكب الشيخ المظفر، هذه الحركات منذ ظهورها، واشترك في كثير منها، ووعى ضرورتها، ثم انتقل العمل الإصلاحي إلى مرحلة العمل الجماعي المنظم في إطار الجماعات، والحركات الإسلامية، وأسهم الكثير من مؤسسي هذه الحركات، ومثقفيها في تنشيط حركة الإصلاح الفكري والسياسي.. وكان السيد (محمد باقر الصدر)، من المفكرين الإصلاحيين المتميزين في جرأة طروحاتهم الفكرية، والسياسية، والاقتصادية، والفقهية، والفلسفية.

فقد اتسم منهج الشهيد (محمد باقر الصدر) الإصلاحي، في التنظير لمواقف الإسلام من مشكلات الحياة المتنوعة، اتسم بتحليل مدلولات النص في ضوء معطيات الواقع، ونتائج التجربة البشرية على الأرض؛ فتحرر الوعي في خطابه الإصلاحي، وتخلص من الاستغراق الخيالي في مفهومات تجريدية ظل الخطاب الإسلامي في أمرها فترات طويلة، يجري ويعوم في مسائل ذهنية غير واقعية، ويراوح في متاهات نظرية لا تتصل بالحياة الاجتماعية، وإشكالياتها بشكل مباشر، وإنما تخوض في وقائع السماء وأحوال عوالمها، وأحوال عوالم أخرى مفترضة.

لقد كان فكر الشهيد الصدر الإصلاحي حواراً حافلاً مع الواقع، وتحليلاً دقيقاً لمشكلات الحياة، واستكشافاً رائداً للنظريات الإسلامية إزاء هذه المشكلات، من خلال استنطاق القرآن الكريم، والسنة النبوية.

والبعض يعتبر تيار السيد الصدر تياراً مستقبلياً، حيث يلاحظ أن الفكر الإسلامي يضم تيارين:

الأول: يرجع إلى الماضي، وإلى أصول الإسلام بصورة غير واعية.

الثاني: تيار يستوعب متطلبات الحاضر، وثوابت الإسلام من موقع وعي حركة التاريخ.

إن التيار الإول ليست له نظرة مستقبلية، كما توجد في التيار الثاني؛ لذا فقد حلل السيد الصدر ظروف العصر الحاضر، وحدد مشكلاته من خلال متطلبات الإسلام وتوقعات المستقبل.. فكان تياره الإصلاحي تياراً مستقبلياً، فالإصلاح والتجديد سنة الحياة، ومن لا يعمل بهما يمُت.

ويرى الشيخ (حسن الترابي): أن الصلة عميقة جداً بين الإصلاح الاجتماعي، والفكري والواقع.. ويُضيف: أن انقطاع فكرنا عن الواقع حرم من كل مدد يصله بالحياة.. وغدا محفوظات نقلية ترتاب من الحاضر، وتخاف من المستقبل؛ لأن التقارب مع الواقع الحي في نظره، هو الذي يعرّض الفكر لتحديات الظروف المستجدة كل يوم، ويستفزه إلى أن يستجيب لها، فيتجدد، وينمو نمواً مطرداً، وبغير هذه الصلة تموت دواعي الإصلاح والتجديد، وعناصر الحركة والتوالد.

ويعتقد (عبد الوهاب المسيري) أن لا إصلاح بلا انفتاح على العالم، ويعتبر أن الانفتاح على العالم، سيؤدي الى اصلاح التشوه المعرفي الذي لحق بنا سنوات طويلة.. ويقول: لابد من الانفتاح على ثقافات العالم، والاستفادة من التراث الحضاري، والثقافي، والفكري للحضارات العريقة المختلفة، هذه الحضارات التي تملك زاداً معرفياً غزيراً في فهم الإنسان، والمجتمع، والطبيعة.

التيارات الإصلاحية السياسية

ظهرت في القرن العشرين، الكثير من التيارات السياسية الإصلاحية في العالم.. وفي أستراتيجياتها الإصلاحية استطاعت قيادات هذه التيارات النظر الى الإصلاح الاجتماعي، والفكري على أنه عملية متواصلة تفيد الغالبية، وليس الأقلية.. ولم تتعامل هذه القيادات مع إصلاحاتها كأحداث عرضية، أو ظرفية متقطعة زمنياً، ومكانياً، بل اعتبرتها سلسلة متصلة تحقق أهدافاً محددة متفقاً عليها، وإن كانت قابلة لإعادة الصياغة في ضوء نتائج التطبيق، وفي هذا الجانب يقول الدكتور الجعفري:

(لقد عاشت الكثير من أمم العالم حالات التيارات.. وان قادتها تحولوا الى تيارات، ومن هؤلاء: المهاتما غاندي، ونهرو، ومانديلا، وديغول.. فمات ديغول وبقيت الديغولية، وظل ساسة فرنسا المتأخرون، يعيشون عيالاً على قادتهم السابقين.. فخرج مانديلا من الحكم ولم يخرج من التاريخ، وقهر غاندي اكبر امبراطورية في التاريخ الحديث، بثورة لم يحمل فيها السلاح، إلا سلاح التيار.. ولذلك قال (وينستون تشرشل): لا معنى لكلمة بريطانيا العظمى من دون الهند، وأمة الهند.. واستطاع نهرو أن يحقق لها استقلالاً دون أن يحمل سلاحاً سوى سلاح التيار ايضاً).

لقد كانت كلمة الاصلاح، ولازالت، تمثل حالة الخلاص من الركود الاجتماعي، والسياسي، والثقافي.. فهي تتردد في كل مكان، وزمان، يقولها المثقفون في منتدياتهم الخاصة، ويرددها القادة السياسيون، وتهتف بها الجماهير الغاضبة في المظاهرات.. وكل فئة من هؤلاء تفهم الاصلاح بطرقها الخاصة.. فالمثقفون يريدون إصلاح الذهنية العقلية لتكون أكثر تقبّلاً للتجديد.. ومطلبهم هو إشاعة مناخ يحتوي على قدر أكبر من الديمقراطية، وحرية التعبير.

أما السياسيون فيرون في دعوة الإصلاح تغييراً للأنظمة والآيديولوجيات العتيقة، لتتحول إلى تيار يجمع الكل على رؤى المواطنة، والحداثة، والجماهير ترى في الإصلاح طريقاً، ووسيلة لنيل حقوقها، والعيش بدرجة أكبر من الكرامة.. ودرجة أقلّ من الإهمال.. وتقديم الخدمات وتحسين الوضع المعاشي. على الرغم من أن الإصلاح المؤسسي، الذي دعا إليه الدكتور الجعفري قد بدأ بعملية فوقية من زعيم سياسي، فإن هذه العملية قد اكتسبت سريعاً شكلاً تفاعلياً بين القاعدة والقمة، بسبب تقارب عوامل نفسية، وثقافية أصيلة وجدها الكثير من أفراد التيار في شخصية القائد.. حيث استجاب الأفراد، وتفاعلوا مع عملية الإصلاح، وأضافوا إليها جانباً كبيراً من الحيوية والابتكار.. وعن التفاعل بين القمة والقاعدة يقول الجعفري:

(إن التيار لا يأتي بقرار فوقي، بمعنى أن تجلس مجموعة، وتؤسس جمعية؛ فتعلن عن نفسها.. التيار ليس كذلك، وإنما هو انعكاس الواقع، حيث يمثل نسقاً صاعداً مع الناس، وبأن لهم قناعة معينة يلتقون حول رمزيات خاصة، فيجمعهم فكر معين، وعادة ما تكون الحالة الوطنية هي الغالبة، فإذن... نحن أمام ولادة واقعية، منبعثة من رحم المجتمع).

لقد تفاعل مع هذا التيار الإصلاحي أساتذة أكاديميون، وطلبة جامعيون، ورجال سياسة.. وجمع كبير من المثقفين، والأدباء، والفنانين والإعلاميين.. إضافة إلى رؤساء ووجهاء العشائر.. وقد استفاد تيار الإصلاح من قوة هذه الاستجابة في طرح

موجات من التطوير، والتغيير، حيث افتتحت العديد من المقرات، والصحف في العديد من المحافظات.

لقد نجح الجعفري منذ البداية في تعبئة النخبة المثقفة عامة، والسياسيين المنفتحين خاصة على مشروعه الإصلاحي من خلال طرح دراسات، ونماذج استشرافية تشير إلى المزايا الإيجابية المتوقعة من وراء التغيير، وقد قاد ذلك تدريجياً إلى اليقين بضرورة الإصلاح، خاصة بين قيادات دعوية، وغير دعوية.. إلى أن تحول إلى تيار شعبي.

لقد شجعت هذه الاستجابة الجعفري على مواصلة إستراتيجيته الإصلاحية، والإبحار في آفاق أبعد.. فقد كان مؤمناً بأن جوهر النجاح هو تعبئة الجهود، والقوى الوطنية الذاتية، والاستفادة من الانفتاح في الداخل، والخارج، وهنا يقول:

(بعد أن كانت الفكرة تتحرك في إطار النخب.. وفي أروقة المفكرين والمختصين.. تحولت إلى تيار اجتماعي، كي ترسم معالم المجتمع الجديد).

ويضيف الجعفري:

(لقد كان التيار استجابة لواقع المجتمع العراقي، من جراء عوامل اختمرت متفاعلة لتتمخض عن ولادة التيار، فهو تشكّل، وتكوّن ذاتي أكثر منه تشكيلاً أو تكويناً فوقياً.. وبناء تلقائياً، أكثر منه صيغة مفروضة). لقد كان الدكتور الجعفري بحق رائداً لتيار الإصلاح الفكري، والسياسي، والمجتمعي في ظرفنا الراهن.. وربّان موجاته.. ومصداق ذلك هو الأعداد المتفاعلة والمتزايدة والراغبة في الدخول إلى تيار الإصلاح الوطني.

لقد دعا الجعفري كذلك، الحركات، والأحزاب الإسلامية وغير الإسلامية، لإعادة النظر في أوضاع تنظيماتها، التي تعاني الكثير من الجمود والرتابة.. وهي أوضاع أضحت غير مُجدية، ومتعارضة مع متطلبات الكفاءة، وتحسين الأوضاع الخدمية، والثقافية للفرد وللمجتمع.

إن تيار الإصلاح الوطني ينفتح على كل شرائح المجتمع.. ويعمل من أجل الصالح العام.. وإن الشعب، واحترام حقوقه ومعتقداته، والسيادة للوطن، أهداف يسعى التيار لتحقيقها.. كما يقول الجعفري.

الإصلاح حركة تنويرية

كانت مهمة الإصلاح، ومازالت مهمة تنويرية، حتى أصبح من الجائز القول: إن الإصلاح بمعناه الواسع هو المحرك للمجتمعات وللتاريخ، لذا لابد من حركة تنويرية في الدين، تكون مقدمة للإصلاح الاجتماعي والسياسي.. وهنا يؤكد الجعفري على الوعي الديني، ويقول:

(إن القرآن الكريم، ينفتح علينا بثقافة التعدد على مستوى عطاء العقل، كونه فضاءً متسعاً يحترم الآخر.. لذلك أقرّ القرآن التعدد بالحوار، والتعدد بالتفكير، والتنوع الفكري الذي احتضنه ورعاه، ولذلك نشأ أصحاب الفكر، وترعرع فكرهم الإسلامي في آفاق الدين الإسلامي).

إن معرفة الجعفري العميقة بالموروث الإسلامي الفلسفي، والروحي، وبالإسلام الحركي المعاصر، جعلته يؤكد على أولوية الإصلاح الديني، باعتباره أساساً للنهوض، حيث يرى:

(لقد أشاد الإسلام صرح البناء المدني للمجتمع على أسس إنسانية، ابتداءً من العلاقة الزوجية، وما أودع الله (تبارك وتعالى)، فيها من مودة ورحمة، لتدّخر كل مشاعر الحب، وتتوشح بأنبل الأحاسيس، وتعيش حالة من الاستقرار والسكينة؛ ما تصلح معها أن تكون نواة صالحة في المجتمع، تنمو وتتفاعل مع أمثالها؛ لإيجاد المجتمع الإنساني الذي يزخر بالمعاني الإنسانية، ويعطيها قاعدة عريضة، يقوم عليها بناؤه وتتفاعل مع قيمها، ومعتقداته وأحكامه.. كما ثبّت (إطار التقوى)؛ ليكون الاجتماع الذي تتحرك فيه كل العلاقات من الشعوب، والقبائل المكونة لذلك الاجتماع :

((ياأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم)). الحجرات/13

إن جوهر فكر الجعفري في الإصلاح يقوم على وحدة المجتمع، وهي دعوة جديدة للتوفيق بين مكونات المجتمع.. دعوة إلى العقلانية والمواطنة الحقة، والديمقراطية في إطار الدين.. فهو يطالب بسيادة قيم العقلانية والعدل، والحرية، والتسامح، والاجتهاد الفكري.. ويرى:

(أن هناك الكثير من المشتركات بين الحضارات، وبين أصحاب الفكر منذ فجر التاريخ، ومن بينهم كونفوشيوس، فيثاغورس، أشعيا الثاني، زرادشت، وبوذا).

لقد طالب الدكتور الجعفري بدحر ثقافة العادات والتقاليد البالية والضارة.. فيقول :

(نحن أمام جهدين، فكري وثقافي، يتولى عملية دحر ثقافة العادات والتقاليد، التي ورثناها عن الآباء والأجداد، والتي لا تمتّ إلى فكرنا بصلة.. فلا يوجد في تاريخنا فكر ومفكّر، ونظرية ومنظّر، يُعتد به وبها، يسمح لنا أن نتعامل مع المرأة على أنها دون الرجل).

كما أن للجعفري نظرة للتأريخ تقوم على أنه:

(خزين قيمي، وثروة من الخبرات، ورصيد معنوي، بما لا يتحول فيه إلى عقدة ماضوية تأسر التيار الإصلاحي بكل شيء في الماضي).

كما يرى الجعفري أن الانتماء إلى الدين، والمذهب لا يعني إلغاء أو حذف الانتماء الوطني، حيث يعتمد تيار (الإصلاح الوطني)، الذي أسّسه الجعفري، ووضع مبادئه وآفاقه المستقبلية، فيقول في علاقة الدين بالتيار :

(إن التيار على رؤية مبدئية بما ينسجم مع أهداف الدين والأنظمة الاجتماعية العادلة في بناء المجتمع، والتي تسعى لها منظمات وأحزاب وتيارات مختلفة، من خلال الإسهام في إعداد وتقديم الإنسان الصالح الكفوء).

إن المنهج الوسطي الذي يؤكد عليه الدكتور الجعفري من شأنه أن يجعل التفكير، والفهم المتبادل، هو السبيل بدلاً عن الإقصاء، والتهميش، والعزل، وبذلك نؤسس لثقافة تتجه إلى بلورة الرأي، وصياغة الموقف، فيعلّق الجعفري على دور ثقافة التسامح وأهميتها قائلاً :

(يمكن أن يتم ذلك من خلال إشاعة ثقافة التسامح، والعفو التي تحث عليها الأديان، والقيم والأخلاق العامة.. فضلاً عن أنها مظهر مهم في ممارسة الحياة الحضارية المعاصرة).

الإصلاح الاجتماعي

إن العالم اليوم يواصل مسيرته مع مختلف ظواهر، ومظاهر التطور والتجديد، وفي مختلف مجالات الفكر، والمعرفة، والعلوم، والقيم الديمقراطية، والمواطنة، والحرية.. فضلاً عن الانفجارات في التنمية الاقتصادية، والثقافية.

لقد استفاد الجعفري من مظاهر التطور هذه، فالإصلاح والتحديث اللذان يسعى إليهما يقومان على، (والكلام للجعفري) :

(التوازن بين العقل والدين، وما يختزن من قابليات، والواقع بما يزخر به من تجارب ليحقق الإبداع الواقعي، والمنهجية الوسطية التي تتجنب النظر المحدود، وتنأى عن التطرف، وتحقق المشترك الإنساني الذي يهدف إلى تعميم الخير على كل ابناء المجتمع).

والرجل يتوخى معالجة كل السلبيات المجتمعية، فيضيف :

(يجب أن يتم ذلك بشكل منهجي، موظفين كل أساليب وآليات الإصلاح في الفكر، والقيم، والسلوك، والكفاءات العلمية، والعصرية، والمسؤوليات القانونية، وكل ما من شأنه الأخذ بالواقع الحالي إلى الرقي والتقدم.

إن الهوية الثقافية لمجتمعنا، ووطننا تتكون من مجموعة التشكيلات الاجتماعية المتعددة في منابتها، وميراثها الديني، وتحولاتها الثقافية.. وإن أي تنكّر لواحد من هذه المصادر يُفضي إلى انقسامات مجتمعية عميقة، والجعفري يؤكد في هذا المجال على طبيعة النسيج الاجتماعي العراقي المتنوع في الأديان، والمذاهب، ويطالب بتنشيط الذاكرة الجماعية للمجتمع، وما كان يعيشه من ألفة ومحبة وانسجام منذ آلاف السنين.

كما يرى الجعفري، في اختيار الشخصيات القيادية التي تملك عمقاً وطنياً كبيراً، وحضوراً اجتماعياً معتدلاً تحقيقاً للقبول النفسي لدى معظم شرائح المجتمع العراقي، لتوليها المسؤوليات ذات الأثر الاجتماعي المباشر.. ويدعو إلى تجنّب الشخصيات التي لا تحقق قبولاً وافياً في البُعد الاجتماعي.. ويعتبر هذا مطلباً أساسياً أو آلياً مهماً للإصلاح الاجتماعي.. ومؤشراً فعالاً في الممارسات الاجتماعية، والحياتية على حساب المعايير ذات الأثر السلبي.

أما في مجال ضبط السلوك الاجتماعي، وتكوّن معاني المدركات، والمعارف والقيم لدى الأفراد، يطالب بدور كبير للأسرة والمدرسة في غرس خصائص الإيمان، والأخلاق الفاضلة، والتعاطف مع الحالات الإنسانية العامة.. وتطوير الذوق العام باتجاه النظام، والمساواة، وتنمية الحس الوطني التنموي.

الإصـلاح والوحـدة الوطنيـة

بمـا أن الوحـدة الوطنيـة تبـدأ بـاحترام حقـائق التنـوع والخـصوصيات.. وأنهـا تـُثري حالات التعايش والتعدد المجتمعي.. وأن التجـارب الإنسانية جميعها تقف بقوة ضد كل من يحاول تفتيت هذا التماسك المجتمعي.. تطالب مسودة الثوابت لتيار الإصـلاح الوطني بـ :

نشر الثقافة الوطنيـة لدى أبنـاء المجتمع العراقي، وجعل خدمـة الـوطن والمـواطنين مقياساً في التفاضل بينهم، وحثهم على التسابق والتضحية من أجل العراق مع التأكيد على تبني المنهج الوطني الذي يتكفل بحب العراق والتفاني من أجل بنائه، وحمايتـه، والذود عن كرامته، وكرامة شعبه.

يعود الجعفري إلى التاريخ، حيث تنوع، وتعدد وحدة المجتمع العراقي وانفتاحه على بعضه.. وانسجامه الديني، والمذهبي، والسياسي، والفكري.. فيقول :

(إن الوحـدة الوطنيـة تقـوم علـى معرفيـة تـدوّنت عبـر التـاريخ، وتركـت آثارهـا وبصماتها في كل صفحة من صفحات تاريخنا المجيد.. وقد عاش آباؤنا وأجدادنا طيلة التاريخ، وهم متحابون، متآخون، متعايشون، ربما شهدت بغداد سجالاً طائفياً، ولكن كُتـّاب التـاريخ من زاويـة اجتماعيـة نظـّروا لمثل هذه السجالات علـى أنهـا جاءت وافدة إلى العراق، ولم تنطلق من أرضه).

ويضيف:

(لقد عـاش أبنـاء القبائـل عرفـاً قبليـاً، وتقليـداً فـي ديـوان واحـد، يتقاسـمون الهمـوم، ويتطلعون معـاً الـى اهداف مشتركة وهم من السنة والشيعة، وأمـا عن الزيجـات، فإحدى الإحصائيات تذكر أن (21,08من الزيجات متنوعة مذهبياً وقومياً).. ويسأل الجعفري:

(ماذا نقول لأولادنا، وبناتنا الذين تعودوا أن يعيشوا فـي ظل عائلـة، الأب والأعمام فيها من مذهب، والأم والأخوال من مذهب آخر.. متـى جاءتنـا هذه النعرة المقيتـة، التـي تحـاول أن تـستبدل وحـدتنا تمزقـاً، وعلـو كلمتنـا انحطاطـاً وتـدهوراً، وتحـوّل حضارتنا إلى جهل وتراجع وتخلف؟!).

بعد أن يؤكد على ما ورثه الشباب عن آبائهم وأجدادهم مجداً موشحاً بالوحدة الاجتماعية.. يحذر من الأعاصير المختلفة التي تحاول أن تمزق وحدة الشعب العراقي.. وتستبدل هذه الوحدة بالفرقة.. فيقول:

(إن الأعداء راهنوا على فصم عرى الوحدة الوطنية في العراق، وجاؤونا ببدعة جديدة، بشعارات جديدة، بنمطية جديدة من التعامل داخل المجتمع العراقي تحت يافطة الطائفية المقيتة، لقد أرادوا أن يستبدلوا التعايش المذهبي الرائع الذي نسجته أخوة العراقيين، وأخرجت منه نسيجاً رائعاً قوياً، تأتلف فيه الألوان، ويكون أنموذجاً للعالم المتنوع، أرادوا أن يستبدلوه بالفرقة والتناحر).

إن للانتماء والتعايش في فكر الجعفري خطابهما، فها هو يقول :

(إن خطاب الفرقة مرة يشير إلى الاختلاف السياسي، وأخرى إلى الاختلاف التاريخي، بعكس الخطاب الوحدوي الذي لا يمر على هذه المحطات مروراً عابراً، من دون أن يتعامل بمدى فكري عميق، وواقعية غير متناهية معها.. ويجعل من الخلافات السياسية حقاً طبيعياً ضمن دائرة الأحكام الترخيصية.. والأمة الحية لها تلقيات لخطاب الوحدة، ولها صدود عن خطاب الفرقة).

ويدعونا الدكتور الجعفري لأن نقرأ التاريخ قراءة متأنية تعيد جيلنا الحاضر إلى الأجيال الماضية؛ لاستلهام التجارب والاستفادة من العِبَر.. وهو أمر مطلوب إلى حد كبير.. بيد أن تحويل التاريخ إلى عقدة ماضوية تؤثر في حاضرنا تأثيراً سلبياً وتجعله حاجزاً يحول دون التعامل مع المكونات المتنوعة، وبما يعيق تماسك الوحدة الوطنية أمر يجب تجاوزه).

الإصلاح والأمن المجتمعي

تختزن مفردة الأمن الكثير من الأبعاد، والجوانب في حياة الإنسان الفرد والمجتمع.. إذ لا يمكن أن يتم التطور والاستقرار من دون الأمن، بحيث يأمن الإنسان على نفسه، وماله، وعرضه، فينطلق في عملية البناء والتنمية والإعمار.

ولأجل تحقيق هذه المطالب يؤكد الدكتور الجعفري على الاهتمام بالقوات المسلحة من حيث الكم، والنوع، والأداء، والتجهيزات لحفظ سلامة البلد وسيادته، وأمن أبنائه.. ويدعو كذلك لملء الفراغ الأمني حين انسحاب القوات الأجنبية. وبما أن الأمن هو عبارة عن منظومة متكاملة من القيم، والحقائق والإجراءات التي تفضي إلى تعطيل مفعول كل المخاطر على المجتمع، يعتقد الجعفري :

(أن الأمن لا يتحقق إلا وفق منظومة متكاملة، يتم وضعها تبعاً لأستراتيجية شاملة تمتد إلى جميع مفاصل البلد، وتشمل النقاط الآتية :

- المحافظة على استقلالية المؤسسة العسكرية، والمؤسسات الأمنية الأخرى.

- تفعيل مسألة الوحدة الوطنية العراقية، وهذا يشكل أهم ركائز الملف الأمني.

- توفير وتنشيط السند الدستوري للملف الأمني، وإخضاع هذا الملف للقانون والقضاء.. وفصله عن التدخلات الداخلية والخارجية.

- وضع الأستراتيجية الأمنية العامة التي تشمل: وزارتي الداخلية والدفاع وسائر القوى الأمنية.

إن مفهوم الإصلاح، والأمن المجتمعي وسيلة رئيسة للتحصين الاجتماعي.. وهذا ما يجب دعمه من قبل مؤسسات الدولة كالإعلام، ووسائل الاتصال، وقطاعات التربية، والتعليم، ومنظمات المجتمع المدني).

إن الجعفري يعي أن الحاجة أصبحت ماسّة جداً إلى بلورة مفهوم للأمن في مجتمعنا، حيث يُبنى على قاعدة واقعية وعلمية.. ويعتمد العدالة في التعامل مع كل أطياف المجتمع العراقي؛ ما يساعد على توفير كل مستلزمات وجود الشعب العراقي النوعي، ورفاهيته، وتسهيل سُبُل كسب عيشه.. فأمن العراق ضرورة لا استهانة بها، لما لها من علاقة وثيقة بسلامة أبنائه، وارتباطها العضوي بالخدمات، والتعليم، والاقتصاد، وسائر مرافق الدولة.

الخطاب السياسي الإصلاحي

إن الأداء السياسي الحيوي، والفاعل، والمنفتح على كل القوى ومكونات المجتمع العراقي هو إحدى الوسائل المهمة لضمان الأمن والاستقرار، ومن ثم فإن السِلم المجتمعي، وإشاعة العدالة، وروح المساواة، والمواطنة هي التي تضمن السلام، والاستقرار في المجتمع.

إن الخطاب السياسي الإصلاحي الذي يطمح إليه الجعفري، يريده أن يكون مرتبطاً بحقائق موضوعية ... وأن يصل إلى الناس بسهولة .. من خلال إظهار حقيقة

الأمور للملأ ... على أن لا تطغى الجوانب الدبلوماسية على هذا الخطاب.. وينحسر على مستوى العموميات.

كما يعتقد أن مهمة الخطاب الحقيقية للإصلاح تتطلب عدة جوانب، منها :

التأكيد على المسؤولية التاريخية التي تواجه العراقيين جميعاً، وأن المواطن يمتلك الإرادة الكافية لتغيير، أو إصلاح بعض التوجهات السياسية التي تبتعد عن تلبية مطالب المصلحة الوطنية.. والتأكيد على الروح الوطنية، وإزالة الضباب المتراكم حول مفهوم المواطنة، وتوظيفه لخدمة الفرد والمجتمع .. وفضح الأساليب التي تستند إليها بعض الجهات السياسية، كالطائفية والعرقية.

إن الإسهام في توفير حياة سياسية وطنية ذات أهداف واضحة، وتشجيع الفعاليات السياسية المختلفة، لضمان أمن الدولة والمجتمع، هو ما يطمح إليه الجعفري.

والخطاب السياسي الإصلاحي الذي صاغه الجعفري يطالب بتنشيط الثقة بين أطراف العملية السياسية، والابتعاد عن سياسة الإقصاء، ووضع العقبات. فهو يتبنى خطاباً سياسياً جديداً معتدلاً، ذا أهداف وطنية عامة، متجاوزاً الخطاب الطائفي والقومي المتعصب الذي وقع فيه البعض، فيقول:

(إن السلطة، ونظام الحكم في العراق يجب ألا يقوما على أساس سلطوي فردي، أو طائفي، ممثلاً لمجموعة دون أخرى .. بل يجب أن يكون النظام تجسيداً حقيقياً لرؤى الشعب العراقي، وأهدافه السياسية بقطاعاته كافة.. وأن يكون الدستور الضمانة الأكيدة للمحافظة على حقوق الشعب، ونظامه السياسي.

وبما أن الكثير من الاضطرابات الاجتماعية، والسياسية التي حصلت كانت من جراء التحرك بنفس طائفي.. وبإطار ضيّق.. يذكّر الجعفري بالثوابت الوطنية، ويقول:

(إن هناك مسؤولية سنُسأل عنها غداً.. أي: مسؤولية الخطاب السياسي الراهن؛ لأننا كلنا معنيون بصياغة الحالة العراقية الجديدة؛ لنرتقي بمستوى العراق كله).

(كما أن هناك ثوابت فعل، وثوابت رد فعل .. وفي الخطاب ثوابت لا تتحرك، نحن نحترم الانتماءات الوطنية القومية، والمذهبية، ونحترم الخصوصية، والحزبية، ولكنها لابد من أن تتحرك في إطار أوسع وهو الانتماء العراقي).

ويؤكد في خطابه السياسي الإصلاحي على الانتماء الوطني حيث يعتقد:

(أن الاختلاف الفكري، والثقافي لا يعني الخروج على الإجماع الوطني؛ لأنه حصيلة إنسانية، ومعايشة اجتماعية، ولا يمكن التوقف عند وجهات النظر، والقراءات للأمور والأحداث، بمعزل عن الانتماء الحقيقي للوطن... ويعتقد أن الكثير من القوى السياسية عادت لتتجه إلى الخطاب الوطني).

خطاب الإصلاح الفكري

إن خطاب الإصلاح الفكري الذي يطرحه الدكتور إبراهيم الجعفري لا يعني العودة الى الماضي لاستسقاء الافكار، وطرح افكار مثالية، بعيدة عن الواقع ... بل ان افكاره وطروحاته تهدف الى دمج الآراء من خلال منظومة فكرية، وعمل جماعي.. فهذا التيار، والقول للجعفري :

(لا يُولد من شخصية أحد، بل يُولد من نفسه من خلال منظومة فكرية، ويتجه لتحقيق أهداف إنسانية محددة يلمسها الجميع، ويؤمن بها الجميع، والرموز جزء من التيار، وليس التيار جزءاً منها، كما ان الخطاب الفكري للتيار الذي يطمح له يتسع لكل الأحزاب والشخصيات، التي لا تريد الانتماء، أو الانضمام في العمل الحزبي، فالتيار فيه خدمة للأحزاب.. فهو يفيد من رجالاتها، وأفكارها .. وبهذا ستكون العلاقة تكاملية).

إبراهيم الجعفري لم يتنصل عن الفكر الذي تربّى عليه، ونهل منه، بل اعتبره فكراً تيارياً .. ففي رده على سؤال لإحدى القنوات الفضائية عن مسألة فصل التيار عن الدين، يقول :

(أفهم فكر الدعوة، وأكتب بفكر الدعوة، وأشعر أن فكر الدعوة فكر تياري، مع احترامي للذين أختلف معهم .. أنا الآن حالياً لا أتعامل باسم الدعوة، وإنما أتعامل بناء على مقتضى المصلحة الوطنية العراقية، مستفيداً من تاريخي، وفكري، وتجاربي مع الآخرين في سبيل تلبية حاجة البلد، وهذا ما لا أجد فيه تناقضاً بين ما أنا عليه الآن، وما كنت عليه سابقاً، وسأستمر في المستقبل كذلك.. أنا لست متديناً على الطريقة الضيّقة.. وليس الإشكال في الدين، إنما الإشكال في فهم الدين).
ويضيف :

(إن مدارس الفكر مهما تعددت تنطلق من الإنسان، وتهدف إلى خدمته، وتتحرك في إطار فكر الإنسان، وعواطفه ... ولا قيمة للفكر من دون العاطفة تجاه الإنسان).

فالفكر الإنساني المبسّط جاء لخدمة الإنسان، وسرعان ما نزل من عالم العقل، إلى عالم القلب... وسرعان ما مزج بين عمق الآراء الفلسفية، وعواطف الإنسان، ولذلك والقول للجعفري :

(نجد الفكر التياري، والإنساني في محلات الباعة في السوق، ونجدهما في الأزقة، وأنت تتجول بين الناس، تجد المُزارع، والعامل مثلما تجد الطبيب، والمهندس، وغيره، وكلهم يحكون لك حالة الفكرة المؤنسنة، والفكرة الموشحة بالحب والعاطفة).

إن فلسفة الخطاب الإصلاحي الذي يسعى إليه الدكتور الجعفري تمت صياغتها داخل علاقة الفكر بالواقع الجديد لخدمة الإنسان من خلال التطلع إلى مستقبل زاهر يطمح إليه المجتمع والفرد في العراق، ويتمنى الجميع تحقيقه على أرض الواقع.